الوطنية المجبولة من أشياء قابلة للالتهام

فالح عبد الجبار *

تبدو " الوطنية " كلمة ملتبسة، بل هي موضع تساؤل، او ارتياب. ولهذه الكلمة، التي دخلت الرواج في القرن العشرين، تاريخ محدود لا يزيد عن قرنين. وهي في الاصل اللاتيني Patriotism مشتقة من كلمة Patri، أي الأب. ولهذا البعد القرابي في المعنى دلالة الانتساب الى جماعة، وارتباط هذا الانتساب بالارض. على عتبة القرن العشرين حل مفهوم القومية nationalism، وراج، من دون ان يلغي المفهوم الاول. صارت الوطنية، المقترنة بالوطن، الوعاء الجغرافي للجماعة، ذات مدلول خاص، محلي، او اقليمي. بينما مفهوم " القومية " المرتبطة بالقوم بُعد عابر نحو جماعة اكبر، ونحو كيان سياسي أوسع.

في الحالين تنعم الكلمتان بموقع مقدّس في الخيال الجمعي. ففرق كرة القدم ما تزال تسمى "المنتخب الوطني"، وما يزال " النشيد الوطني " يُعزف في كل المناسبات الرسمية، المملة بالتعريف. ويفيد احد اهم منظري " الوظيفة " و " القومية "، الانثروبولوجي الانكليزي بنديكت اندرسون، ان أشد رموز الوطنية حضوراً في العصر الراهن هو نصب الجندي المجهول،

وان ملء هذه الانصاب الفارغة برمزيم عظام حقيقية سيكون بمثابة فضيحة. وعلى حين تزدهي العواصم بهذه الانصاب، لا نجد نصباً واحداً لـ " الليبرالي المجهول " او " الماركسي المجهول" او " الاسلامي المجهول ".

وعلى غرار القومية، فان الوطنية، قد تجد التعبير عنها في " نظريات " . كما انها تتجسد في حركات اجتماعية. في القرن التاسع عشر، كانت الوطنية في عصر الصحيفة وسكك الحديد، حركة نخبوية، وفي مطلع القرن العشرين، وبالتحديد خلال الحرب العالمية الاولى تحولت الى حركة واسعة، بفضل ظهور البث الاذاعي، والطائرة، اما اليوم، في عصر الانترنيت والفضائيات، فقد ظهر ما يصح تسميته مجازا بالاوطان " الافتراضية "، الاوطان العابرة للجغرافيا، الاوطان القائمة في حقل ثقافي يحتل الأثير ويمتزج فيه، وينتقل عبره، غير عابىء بانقطاعات الجغرافيا.

وبرغم ان كلمتي الوطنية والقومية تثيران السخرية لدى جل مثقفي اوروبا، التي تفقد بلدانها ذلك النقاء العرقي وذلك التجانس الثقافي (بفعل الهجرة في الاقل)، فانهما ما تزالان تستدران الدموع وتوقدان أشد العواطف احتداماً في رقعتنا الثقافية.

ويبدو التكامل والتضاد بين الكلمتين من واقع الحال، برغم المساءلة والتساؤل المحيطين بهما. وللعراقيين طريقة خاصة في التعبير عن هذا الولع في الانتساب الذي يصل اقصى مدياته في الاعلان عن نبذ هذا الانتساب عينه. حصل اكثر من مرة ان يعلن مثقف " كبير "، في المقام او في السن، عن رفض الانتماء الى العراق، وهذا نقد من نوع خاص، دلع المثقف، وإلحاحه، صبوته وخيبته. فالوطن الذي لا يتوافق سياسيا او ثقافيا مع ايقوناتنا الفكرية يعلن غير صالح للانتماء. وهذا الاحتجاج المدوي هو بالاحرى انتماء مشروط، اعلان مبهرج عن الاعتراض، او اللااتفاق. بالمقابل يعلن مثقفون آخرون عن البقاء داخل دائرة الهوية الموحدة باشكال جد طريفة، في رموز ثقافية – مادية هي في الواقع سداة ولحمة الوطنية بمعناها اليومي: الروائح، الاطباق، الموسيقى، الرقصات، الطُرف، النكات، وهلم جرا. وقد حفل الاسبوع الثقافي لمهرجان المدى (الخامس حتى الآن) بهذه الانصاب الثقافية، وجلها بغداي الأرومة.

لا أدري من فكّر في أن يختتم المهرجان باستعراض بعض من أشهر معالم بغداد في الستينيات. فثمة " شربت الحاج زبالة "، وثمة " باقلة قدوري " وثمة " كبّة السراي "، وثمة "المقام البغدادي" ولهذه الانصاب حضور في الذاكرة الجمعية لجيل الستينيات وما بعده.

" الحاج زبالة " شخص حقيقي من لحم ودم. ودكانه الصغير الذي يبيع عصير الزبيب، في شارع الرشيد، على مقربة من مقهى الزهاوي، ومقهى عارف آغا، ومدخل سوق السراي، حيث شارع الكتب الشهير بشارع المتنبي. وكان صغار الكتاب، الجياع دوما، المعوزون دوماً، يلوذون به لكرع قدح من عصير الزبيب، مع سندويتشه جبنة بيضاء. ويظل دكان الحاج زبالة فاتحاً ابوابه حتى الصباح. ولا يكاد هذا الدكان يخلو من حكايات جل ادباء ذلك العهد، وهم يتناولون فيه فطورهم المبكر (الرابعة صباحاً بعد ليلة سكر شديد)، او غداءهم المتأخر عصراً. أما كبة السراي، فهي بالنسبة للكاتب البغدادي ما كانته الهورس شو أو الويمبي بالنسبة للكاتب البيروتي. مع فارق ان كبة السراي تقع عند مفترق طرق يجمع بين رواد مكتبات المتنبي، ومراجعي القشلة، أي دائرة الشرطة والمحاكم، وسوق السراي، الذي يجمع المتبضع من كل لون وشاكلة. دخلت كبة السراي مخيلة البغداديين الاوائل والبغداديين بالهجرة، حتى تحولت الى المعادل المحلي لمطاعم بربر الواقعة بين شارع ليون والحمرا.

المعلم الثالث هو " باقلاء قدوري " والباقلاء بالدهن وجبة فطور بغدادية دسمة يطلبها الحرفيون، حدادين وميكانيكيين، كما يلتمسها المثقفون (وان يكن بدهن أقل حفاظاً على مستوى الكوليسترول). وهي تقدم في العادة مع بيض مقلي، وبصل اخضر، وعصير النارنج الفواح.

و "قدوري " هو شخص حقيقي من لحم ودم، طلع من احياء بغداد القديمة ليديم هذا التقليد في مطعم صغير يطل على نهر دجلة، قريباً من جسر الجمهورية.

وطارت شهرة قدوري في بغداد الثمانينيات، لتوازي همبرجر " ابو يونان " انتشاراً، ومربحاً. اخيرا ثمة " الجالغي " البغدادي، الذي تحول الى رمز وطني عراقي مع دخول التلفزيون عام ١٩٥٤،

في الجالغي البغدادي يطالعك العازفون والمنشدون وقرّاء المقام وهم بلباس تقليدي: "الصاية" و"الزبون"، و"العرقجين" و"الغترة". اما الآلات فتنتمي الى العصر الغابر : الجوزة (الشبيه البدائي للكمان) والسنطور (شبيه القانون). كان قراء المقام من محمد القبانجي الى يوسف عمر يحتلون ذاكرة الستينيين شأن عازف الجوزه شعوبي ابراهيم. أما اليوم فثمة جيل جديد، يتعرف عليه المنفيون بشق الانفس. اما الماكثون على الارض فلا يرون انقطاعاً. لا تعني هذه الاطباق، بل هذه الآلات والموسيقى الكثير للمتذوق الغريب، لكنها توقظ الزمن وترمم فجواته بالنسبة للكائن الرابض في هذا الحقل الثقافي. ولعل لهذه الاطعمة أثر أعمق من كل أيديولوجيات الوطنية والانتماء في إذكاء المشترك الاجتماعي، وادامته. فنسيج الانتماء هو نسيج الحياة. ومادة الهويات مجبولة من اشياء يومية، هي بذاتها مبتذلة. فمن ذا يصدق ان الباقلاء، والسمن، والنارنج، والبصل الاخضر، وكبة البرغل، وعصير الزبيب، هي لبنات في معمار شيء " مقدس " اسمه الوطنية. هل نسينا أن ثمة أنصاباً مقدسة معمولة من تراب، وجبس، وحديد، ومسامير، وحجارة. ليست لهذه الاشياء الدنيوية، العادية الى حد الابتذال، سحراً خاصاً قائماً بها، لكننا نودع فيها معاني وجودنا كجماعة، فتفقد بذلك عاديتها، وتغدو مستودعاً لرموز هوية، ايا كان فهمنا لهذه الاخيرة.

وان توقيرنا لها لا يكاد يختلف عن توقير الجندي الذي يقف وقفة استعداد صارم ليؤدي التحية امام خرقة ملونة تسمى علماً. مع فارق ان بعض الرموز العراقية، صالح للالتهام، شأن حال البلاد اليوم.

* باحث

تجربة المجالس البلدية في العراق

سعد سلوم *

قد أوقع القلب في الأشجان والكمد
هوى حبيب يسمى المجلس البلدي
إذا الرغيف أتى فالنصف آكله
والنصف أتركه للمجلس البلدي
وإن جلست فجيبي لست أتركه
خوف اللصوص وخوف المجلس البلدي
وما كسوت عيالي في الشتاء ولا
في الصيف، إلا كسوت المجلس البلدي
كأن أمي بل الله تربتها
أوصت فقالت أخوك المجلس البلدي

الا ان للفظ "البلدية" دلالات مزعجة في ذاكرة محمد ، فيوم كان طالبا في كلية الهندسة قبل الاحتلال عمل في سوق الشورجة المشهور وسط بغداد ، ببيع بضائع بالتجزئة في بسطة على رصيف الشارع لكي يؤمن قوته اليومي ويستطيع الاستمرار بالدراسة، مثله في ذلك مثل الباعة المتجولين واصحاب الاكشاك والبسطات التي تتجاوز على ارصفة الشوارع العامة وهم في غالبيتهم من الطبقات المسحوقة ومعظم الخريجين الجامعيين ممن أكملوا الخدمة العسكرية الالزامية ولم يجدوا عملا خارج نطاق رصيف الشارع اذ بلغت البطالة مستويات قياسية. وكانت صرخة " إجتي البلدية" كفيلة لتفريق الباعة وتمزيق شمل تجمعات المشترين وبث الرعب في نفوس المتجاوزين على الارصفة وسرعان ما يلوذون هاربين في الازقة الخلفية من هول رجال البلدية و"لوريهم" المرعب والشرطة المرافقين لهم والذين يقومون بمصادرة ممتلكاتهم والقبض عليهم.ويبدو ان مثل هذه الممارسات شائعة في كثير من البلدان العربية حيث تناولها بيرم التونسي في قصيدته " لوري البلدية"

لوري البلدية عامل دوريه
ومقدر روحه على كل أذيه
قوم شوف إيه لامم خرفان وسلالم
متاخده غنايم وياريت حربية!
ويشوف الخضري ببضاعته بيجري
يدلقها وضوغري ياخذ العربيه

تحولت هواية محمد من مراقبة سلبية لاعمال المجلس البلدي الى التزام اخلاقي بدافع الحرص على مدينته وظل يراقب اعمال المجلس بهدوء الى ان عقد المجلس المذكور صفقة ضخمة لحاويات جمع النفايات مجهزة باطارات وتنشر في كل شوارع المدن على مسافة ٣٠ متراً بين كل حاوية واخرى. الا ان الحاويات تعرضت للحرق بسبب عدم قيام احد بمتابعة الامر وجمع النفايات من الحاويات وبدلا من ذلك اضطر الاهالي لحرق الحاويات للتخلص من النفايات.

وبعد المباشرة في تنفيذ المجاري في منطقته اذ كانت منطقته محرومة من خدمة التخلص من النفايات الصلبة، استبشر خيرا، وظل يتابع عن بعد لكن بدقة عمليات التنفيذ .كان انشاء الخطوط الفرعية هي بداية تدشين العمليات، شملت عمليات حفر ومد انابيب باقطار صغيرة جدا لا تتحمل عملية التصريف بكفاءة، وعانت ضغطا مضافا من تصريف مياه الامطار وكانت عملية ربط الانابيب خاطئة وحين اعطى للمشرف الفني على عملية الربط نصيحة حول الموضوع رد الاخير بأنه يعمل بناء على اوامر مهندس الموقع، ذهب محمد لمهندس الموقع ووجد رجلا ليس له اختصاص في الموضوع وكان اشرافه بناء على صفقة مع صاحب الشركة المنفذة للمشروع والتي تربطه بمديرها صلة قرابة.كما لاحظ بأن محطات الضخ الرئيسية لا تتوفر فيها شروط السلامة اذ تفتقر الى تدعيم مناسب للتربة فاعماق الحفر في هذه المحطات تتجاوز الـ ١٠ امتار واي انهيار للتربة يسبب اصابات لعمال يفتقرون اصلا لتغطية التأمينات الصحية.

محمد اصبح منذ ذلك اليوم مغرما بنقد اعمال المجلس البلدي سائرا على درب بيرم التونسي فشعره النقدي للاوضاع الاجتماعية في مصر القرن العشرين ينطبق على وضع العراق الحالي حيث يقول في قصيدته "المجاري"

حارتنا زينة المجاري في وسطها نهر جاري
بفضل مجلسنا البلدي وفضل فيض المجاري
مجلس بلدنا يا قاسي بزيادة خطف الكراسي
وردها وانت راسي خلاها مشروع تجاري

سألت محمد ما دامت انتخابات المجلس البلدي قريبة لم لا يرشح نفسه لتوفر الكفاءة والنزاهة لديه؟

اجابني ان اعضاء المجلس البلدي معظمهم مهددون في حياتهم، كما ان شبكة المصالح الشخصية التي تحيط بهذه الوظيفة تهديد مضاف في حال محاولتك العمل بنزاهة فقد اصبح شائعا استغلال عدد من اعضاء المجالس البلدية مواقعهم لتحقيق منافع شخصية مثل تسجيل اسماء وهمية لعمال التنظيف في الشوارع وجني الارباح من استغلال ازمة النفط والغاز وتبدو مفارقة المثال الاخير في ضوء طبيعة المهمة الاساسية للمجالس البلدية التي تقوم على خدمة المواطنين.محمد تنبه ايضا الى اهمية تجربة المجالس البلدية بوصفها نواة لادارة الاقاليم وما يترتب عليها من آثار الصراع بين المركز والاقاليم، وقد علق محمد على الثقافة السياسية التي تحكم مثل هذه النخب من خلال طريقة فهمها للفدرالية بالقول " انهم يفهمون الفدرالية بمعنى انتفاء رقابة الحكومة المركزية على عمليات السلب والنهب لاموال الشعب". هذا على العكس مما كان معمولا به في ظل النظام الشمولي السابق اذ كان يعتمد على التشكيلات الادارية القديمة (المحافظة، القضاء، الناحية) مستعينا بنظام مركزي شديد الصرامة يشتغل وفقا لهيراركية حديدة ينتصب فيها مركز دائرة الدوائر متمثلا بالرئيس نفسه ويتم تعيين المسؤولين الاداريين "الرؤساء" بامضائه ويتدرج سلم المسؤولية مع تدرج السلطة فإدارة الناحية مسؤولة أمام قائممقامية القضاء والقضاء مسؤول امام المحافظة والاخيرة تتحمل المسؤولية امام حكومة المركز

بلغت التقسيمات الإدارية انذاك ١٨ محافظة هي: الأنبار، البصرة، المثنى، القادسية، النجف، التأميم، بابل، بغداد، ذي قار، ديالى، كربلاء، ميسان، نينوى، صلاح الدين، واسط، أربيل، السليمانية ودهوك. وتقع المحافظات الثلاث الأخيرة في منطقة الحكم الذاتي الكردستاني في شمال العراق. ومن المفترض ان لكل محافظة مجلس منتخب. وتنقسم المحافظات إلى أقضية ومحلات. وتنقسم محافظة بغداد إلى ١٥ منطقة إدارية لها مجالس معينة: ٩ مناطق داخل المدينة التي يبلغ عدد سكانها ٥ ملايين نسمة، و٦ مناطق في ضواحي بغداد. وكان يتم انتخاب معظم رؤساء البلديات عبر انتخابات بلدية، بينما يتم تعيين الرؤوساء مثل رئيس بلدية بغداد.

وقد جرت آخر انتخابات بلدية في العراق في آب ١٩٩٩ وشملت ١٥ محافظة تخضع لسيطرة الحكومة المركزية. أما في كردستان العراق والتي تتكون من ثلاث محافظات هي اربيل والسليمانية ودهوك فقد جرت اخر انتخابات في شباط ٢٠٠٠ في المناطق التي يسيطر عليها الاتحاد الوطني الكردستاني، وفي أيار ٢٠٠١ في المناطق الخاضعة لسيطرة الحزب الديمقراطي الكردستاني. بعد الاحتلال جرت آخر انتخابات لعضوية مجالس المحافظات الـ ١٨ في كانون الثاني ,٢٠٠٥ ويتألف مجلس محافظة بغداد من ٥١ عضوا، بينما تتألف مجالس المحافظات الأخرى من ٤١ عضوا.

بغداد التي كانت عاصمة الخلافة الاسلامية في وقت مضى، بل عاصمة الدولة العالمية التي تضاهي واشنطن اليوم، اصبحت بعد الاحتلال العثماني سنة ١٥٣٤ مجرد ولاية عثمانية يحكمها والي يعينه السلطان العثماني.

وحين طرقت الحرب العالمية ابواب القرن العشرين كان العراق يضم ثلاث ولايات عثمانية هي بغداد والبصرة والموصل، جمعها المحتل البريطاني في شكل دولة العراق الحديث.ويبدو ان ادارة الاقاليم في ضوء الدستور الجديد ستعمل وفقا للقاعدة القديمة على اساس تقسيم العراق الى اقليم الوسط والجنوب واقليم الشمال"كردستان".

وفي هذا السياق تم طرح فكرة تشكيل المجالس المحلية بعد ٩ نيسان ٢٠٠٣ لتتحمل مسؤولية الاحياء وبشكل تطوعي وحصلت انتخابات في اغلب المناطق كان الحضور فيها متذبذبا بين منطقة واخرى وفعلاً تم تشكيل (٨٨) مجلساً محلياً لعموم بغداد باشرت عملها بالتنسيق مع السلطة المدنية للائتلاف ثم جرت انتخابات لتشكيل المجالس البلدية لتسعة قواطع في بغداد وهي (الكاظمية، المنصور، الكرخ، الرشيد لجانب الكرخ، ٩ نيسان، الرصافة، مدينة الصدر، الاعظمية، الكرادة لجانب الرصافة) لتتبعها انتخابات ممثلين عنهم لتشكيل مجلس بغداد الاستشاري البالغ اعضاؤه (٣٧) عضواً في تموز من عام ٢٠٠٣ والذي تحمل مسؤولياته وقدم العديد من المقترحات وقام بانتخاب اول امين لبغداد بعد سقوط نظام صدام

في هذه الاثناء تم تشكيل وانتخاب مجالس الاقضية الستة في بغداد وهي (التاجي، ابو غريب، المدائن، الاستقلال، الطارمية، المحمودية) ومنها تم انتخاب المجلس الاقليمي الذي قام بانتخاب وكيل محافظ بغداد ومن تشكيلات القواطع التسعة ومجلس مدينة بغداد والمجلس الاقليمي تم أنتخاب ممثلين لمجلس محافظة بغداد في ١/٢٩/ ٢٠٠٤ الذي تقع على عاتقه انتخاب المحافظ والاشراف على عمل المحافظة..

لاحظ محمد اتصاف تمثيل المرأة في المجالس البلدية بكونه صوريا أو رمزيا، بسبب الظروف الامنية وطبيعة الثقافة الذكورية السائدة . و اليوم يحاول ابناء مدينته من خلال تشجيعه على ترشيح نفسه تجاوز سلبيات تجربة المجالس في وقت انعزلت فيه بعض المجالس عن المواطنين بهاجس القلق الامني ولم تشرك الجمهور في تنفيذ المشاريع او تعطي مساحة لرأيهم ولم يكن هناك ما يوحي بأي بعد حواري في العلاقة بين المواطن والمجلس سواء على مستوى تنفيذ المشاريع المهمة لصاحب العلاقة الرئيس والمتمثل بالمواطن او على مستوى تطوير الخطط والمشاريع ومستوى انجازها او حتى على مستوى رفع او على الاقل دعم المستوى المعاشي المتدهور للمواطنين.

هذا مع العلم بأن عمل المجالس البلدية بالدرجة الاساس ينبغي ان يحقق صلة يومية بشؤون المواطنين واحتياجاتهم فهو يتعلق بالخدمات الاساسية للمواطن والتي يمكن اجمال بعضها كتبليط الشوارع وصبغ الارصفة وتشجير المناطق وتأهيل وصيانة المدارس وتشغيل الشباب العاطل حسب الامكانية.

وقد اصبح شائعا استغلال عدد من اعضاء المجالس البلدية لمواقعهم لتحقيق منافع شخصية مثل تسجيل اسماء وهمية لعمال التنظيف في الشوارع وجني الارباح من استغلال ازمة النفط والغاز وتبدو مفارقة المثال الاخير في ضوء طبيعة المهمة الاساسية للمجالس البلدية التي تقوم على خدمة المواطنين، لكن انحراف الهدف يأتي على خلفية عامة من الفساد العام الذي تحول الى ثقافة سائدة وعلى حد ما جاء في تقرير المفتش العام لوزارة النفط حول تهريب النفط فأن ما نسبته ٢٠٪ من اجمالي المشتقات النفطية المستوردة الى العراق من دول الجوار من اجمالي الاستيرادات البالغ (٤,٢) مليار دولار لعام ٢٠٠٥ يتم الاستيلاء عليها بطرق غير مشروعة. وما قيمته مليار دولار شهريا من النفط تم الاستحواذ عليه في داخل العراق وتم بيعه في السوق السوداء خلال ٢٠٠٥، وطبقا لاحصائيات حديثة للجهاز المركزي للاحصاء وتكنولوجيا المعلومات، وحسب النسب التالية: ٤١٪ بنزين، ٥١٪ نفط ابيض، ٦٩٪ زيت الغاز(كازولين)، و٥٥٪ الغاز السائل. وقد بلغ الناتج الإجمالي للنفط العراقي عام ٢٠٠٥ ما مقداره ٢٤,٢ مليار دولار بينما بلغت نسبة مقدار الدعم الإجمالي لأسعار الوقود ٢٨,٤١٪، وان زيت الغاز (الكازولين) يباع في السوق السوداء لإغراض التهريب بسعر ٢٤٠ دولارا للطن في شط العرب و٣٠٠ دولار للطن في الفاو ويتقاضى سائق الشاحنة المهربة ٨٤٠٠ دولار لنقل المنتَج (الكازولين) إلى منافذ التهريب، بينما تتقاضى دوريات الشرطة ٥٠٠ دولار عن كل شاحنة تهرب الكازولين إلى الخارج.

بعد أن شهدت فترة الاحتلال تعاظم دور المجالس المحلية بعد اعتماد نظام اللامركزية الإدارية خاصة بعد قانون إدارة الدولة و أمر سلطة الائتلاف المؤقتة ٧١ في ٢٠٠٤/٤/٦ ، كما أخذت بعدا دستوريا بعد إقرار دستور جمهورية العراق في ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٥ حيث أصبحت صلاحية مجالس المحافظات: تعيين المحافظ والمدراء العامين ومراقبة الدوائر وإقرار ميزانيتها المالية السنوية، ما تزال معظم الجماهير تنتظر الانتخابات الجديدة للمجالس البلدية على أمل صعود كفاءات تتجاوز سلبيات التجربة السابقة، وفي هذا السياق ربما ينجح اصدقاء محمد اليوم في دفعه للترشيح في انتخابات المجلس البلدي لكي يكف عن تبطله ويرجع الرغيف كاملا لمواطن مدينته و يثبت للاخير ان اخاه فعلا هو "المجلس البلدي".

* صحفي

> محمد مصطفى ، مهندس مدني تخرج في جامعة بغداد عام ١٩٩٩ وأدى خدمته العسكرية الالزامية ، وبعد الاحتلال الاميركي ٢٠٠٣ انتظر الفرصة المناسبة للعمل من خلال مشاريع اعادة اعمار العراق ، الا ان الوضع الامني قضى على آماله. لمحمد الان هواية يومية فرضتها عليه ظروف البطالة الاختيارية الا وهي مراقبة اعمال المجلس البلدي ، اذ تراه مهووسا بهذا المجلس حتى تعتقد بأن "اخاه المجلس البلدي" كأنه في ذلك يتبع خطى الشاعر بيرم التونسي الذي قال في قصيدته المجلس البلدي :

خليجيون في فيتنام

د. عبدالله المدني *

قبل نحو عقدين من الزمن، و لأسباب سياسية معروفة، لم يكن هناك ما يعتد به من الروابط أو الاتصالات أو علاقات التعاون ما بين فيتنام وأقطار الخليج العربية، باستثناء الكويت.

غير أن هذا المشهد بدأ يتغير تدريجيا، و تحديدا منذ مطلع التسعينيات التي شهدت أحداثا و متغيرات دولية مثيرة، اضطرت فيتنام إلى التأقلم معها عبر الانفتاح على العالم و تبني سياسات خارجية أكثر واقعية و مرونة، و القيام بإصلاحات اقتصادية شملت الأخذ بمبدأ اقتصاد السوق و التخلص من مظاهر حقبة التخطيط المركزي الطويلة و وضع نظام مالي و مصرفي جديد و غيرها من الإجراءات التي لعب فيها رئيس الوزراء الحالي "نغوين تان دونغ" دورا مهماً، بدليل اختياره مؤخرا من قبل مجلة "وورلد بيزنيس" المرموقة ضمن الشخصيات العشرين الأكثر تبنيا للإصلاح والانفتاح و الأكثر جهدا في مجالات التنمية على مستوى القارة الآسيوية.

هذه التحولات، التي كان من شأنها بروز فيتنام خلال فترة قصيرة كإحدى أسرع دول جنوب شرق آسيا نموا و بمعدلات سنوية تراوحت ما بين ٧- ٨ بالمئة، و تحولها إلى احد أهم مراكز الجذب الاستثماري و السياحي في القارة الآسيوية، شجعت الخليجيين على طرق أبواب فيتنام بحثا عن فرص الاستثمار و التعاون و التبادل، محاولين على ما يبدو اللحاق بالأوروبيين و اليابانيين والأمريكيين الذين سبقوهم إلى ذلك فجنوا فوائد وامتيازات كثيرة.

صحيح أن الخليجيين تأخروا كثيرا في هذا المجال، إلا أن الفرص كانت و لا تزال سانحة و مغرية في ظل الاستقرار السياسي و الاجتماعي الذي تنعم بها فيتنام و حاجتها إلى المزيد من الاستثمارات الاجنبية للارتقاء بقطاعات عديدة، و اتخاذها مؤخرا للعديد من الخطوات القانونية والإدارية الهادفة إلى مكافحة الفسادين الإداري و المالي و تعزيز الشفافية تحت ضغط المؤسسات الدولية المانحة و تمشيا مع شروط قبولها في العام الماضي في منظمة التجارة العالمية. هذا فضلا عن اهتمام خاص من الجانب الفيتنامي بتعزيز آفاق التعاون مع دول الخليج في ظل ما تشهده الأخيرة من حراك و نمو اقتصادي و ما تراكم لديها من فوائض عائدات النفط، بدليل إقدامه في السنوات الأخيرة على إنشاء علاقات دبلوماسية كاملة مع معظم الأقطار الخليجية، و نيتها افتتاح ممثليات جديدة لها في المنطقة إضافة إلى سفارتها في الكويت و قنصليتها العامة في دبي، وإلحاحه على فتح ممثليات للدول الخليجية في هانوي و مدينة هوشي منه (سايغون سابقا) حيث لا يوجد لهذه الدول أي تمثيل، و ذلك من اجل تسهيل الحصول على التأشيرات و التصديقات.

و يمكن في سياق الإشارة إلى زيادة اهتمام الخليجيين بفيتنام ايراد العديد من الأمثلة أبرزها: قرار "شركة المملكة القابضة" السعودية التي يملكها الأمير الوليد بن طلال في أوائل العام الجاري استثمار أكثر من ٦٥ مليون دولار في بناء الفنادق و المنتجعات السياحية في مناطق "دا نانغ" و"نانوي" و "هوشي منه" من اجل مواجهة التدفق السياحي المتزايد على فيتنام من أوروبا واليابان، وحاجة البلاد إلى المزيد من الفنادق الفاخرة. و افتتاح أول خط جوي مباشر ما بين الخليج وفيتنام بمبادرة من الخطوط الجوية القطرية التي صارت تسير منذ مارس المنصرم أربع رحلات في الأسبوع ما بين الدوحة و"هوشي منه" التي بدلت ردائها الثوري و تحولت اليوم إلى مدينة كزموبوليتينية تعج بالحركة والنشاط و المجمعات التجارية الحديثة و المسارح و أماكن الترفيه الراقية و مظاهر العولمة. و تعهد الكويتيين مؤخرا بضخ أكثر من ٥٠٠ مليون دولار في قطاع النفط الفيتنامي من اجل بناء مصفاة للتكرير في مقاطعة "تانه هوا"، فضلا عن إعلانهم عن قرب إضافة فيتنام إلى قائمة الدول الثمانية و الثلاثين التي يحصل رعاياها على تأشيرات الدخول بمجرد وصولهم إلى المنافذ الكويتية، و ذلك بهدف تعزيز التواصل و التعاون مع الشعب الفيتنامي.

وفي السياق نفسه يمكن الإشارة إلى عوامل أخرى مساعدة لجهة تعزيز التواجد الخليجي على الساحة الفيتنامية و تنمية التبادل و التعاون الثنائي، منها: توقيع السعودية و فيتنام على أول اتفاقية للتعاون الاقتصادي و التجاري و الاستثماري و التقني بين البلدين منذ تأسيسهما لروابط دبلوماسية في عام ١٩٩٩ ، و ذلك أثناء زيارة وزير الدولة السعودي للشئون الخارجية نزار بن عبيد مدني لهانوي في مايو ,٢٠٠٦ ومنها أيضا توقيع قطر و فيتنام في فبراير الماضي على أربع اتفاقيات حول العمالة و الطيران و الازدواج الضريبي و حماية الاستثمار، و ذلك أثناء زيارة الشيخ حمد بن جاسم بن جبر آل ثاني وزير الخارجية القطري آنذاك لهانوي.

أما الكويت المعروفة خليجيا بأسبقيتها في العديد من المجالات، فلم تكتف بكونها أول بلد خليجي يؤسس علاقات دبلوماسية مع هانوي و ذلك منذ عام ١٩٧٦ ، و يستقبل على أراضيه أول سفارة فيتنامية في المنطقة ، ويقوم بمبادلات تجارية مع فيتنام (بلغت قيمتها في العام الماضي نحو ٣٨٠ مليون دولار)، و يقدم لها القروض و المساعدات من خلال الصندوق الكويتي للتنمية العربية (ستة قروض بقيمة إجمالية زادت على ١٠٠ مليون دولار، كان آخرها قرضا في العام الماضي بقيمة ١١,٦ مليون دولار لتمويل مشروع للري في إقليم "داك لاي") ، و يفتتح اكبر مصارفها التجارية (بنك الكويت الوطني) مكاتب له في فيتنام، و إنما صارت أول بلد خليجي يبعث برئيس وزرائه إلى فيتنام. و الإشارة هنا بطبيعة الحال إلى الزيارة التي قام بها الشيخ ناصر محمد الأحمد الصباح في أواخر الشهر الماضي إلى هانوي، و التي تخللتها توقيع بروتوكول حول إنشاء لجنة وزارية مشتركة للتعاون الاقتصادي و العلمي و التقني، و اتفاقية حول الازدواج الضريبي و حماية الاستثمار، و أخرى حول التعاون ما بين غرفتي تجارة و صناعة البلدين، وقرار كويتي بافتتاح سفارة في هانوي و قنصلية في مدينة "هوشي منه" قريبا.

ومن المسائل المتداولة بكثرة بين الجانبين الخليجي و الفيتنامي، مسألة استقدام دول الخليج للعمالة الفيتنامية، و الذي شرعت به ابتداء المملكة العربية السعودية قبل عدة سنوات ضمن سياستها الرامية إلى تنويع مصادر الاستقدام و تخفيف الاعتماد المكثف على رعايا دول شبه القارة الهندية ممن باتوا يشكلون أكثر من مليوني نسمة. ورغم أن إجمالي حجم العمالة الفيتنامية في السعودية لم يتجاوز منذ ذلك الحين الرقم ٥٠٠ ، لأسباب ذات علاقة بعدم وجود سوابق مشجعة و عدم إجادة الفيتناميين للغة الإنجليزية أو أي لغة أخرى مشتركة، فان مصادر وزارة العمل السعودية تقول أن بامكان أسواق العمل في المملكة استيعاب أكثر من مائة ألف عامل فيتنامي ماهر في السنوات القادمة. و من جهة أخرى أبدت قطر في العام الماضي اهتمامها بالعمالة الفيتنامية، حيث قال وزير خارجيتها أن بلاده تتطلع إلى استقدام أكثر من ٦٠ ألف عامل من فييتنام في السنوات القادمة. أما دولة الإمارات، فطبقا لنائب وزير التجارة الفيتنامي الذي زارها مؤخرا واجتمع فيها مع رجال أعمالها، تستقدم ما معدله ٣٠٠٠ عامل فييتنامي في العام، جلهم من العاملين في مجال الإنشاءات و مصانع الألبسة و بقدر اقل في الصناعة الفندقية المزدهرة. و مما أضافه المسئول الفييتنامي، أن بلاده تحاول إرسال المزيد من عمالها المهرة و غير المهرة إلى الإمارات و دول الخليج والشرق الأوسط، أسوة بما تفعله حاليا مع ماليزيا و تايوان و اليابان والولايات المتحدة، مضيفا أن فييتنام قطعت شوطا جيدا في مجال إعداد عمالتها للعمل في القطاعات الخليجية ذات الطلب المتزايد على العمالة الوافدة مثل القطاعات الفنية و الصحية ، والخدمة المنزلية، و أنها الآن بصدد التعامل مع العائق المتبقي الوحيد و هو تدريبهم على مهارات اللغة الإنجليزية.

* اكاديمي